Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (3), Issue (8): 30 Aug 2019
P: 74 - 93

ISSN: 2522-3380

مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (3)، العدد (8): 30 أغسطس 2019 م
ص: 74 - 93

The fishing profession's role in constructing a pantribal identity of the Imraguen community in Mauritania

Yacoub Bahdah

Faculty of Arts and Humanities || Mohammed V University || Morocco

Abstract: This artice discusses an issue of a great paramount in soccio-anthrpological studies in general, and in tribal societies in particular. The article studies the "Imraguen" community which was formed on the basis of a common profession discarding the traditional tribal frames in a society where the tribe had a strong status and a crucial role in individuals' relations.

The article aims at uncovering the considerations of a shared profession, fishing, in the formation of this community as well as how families and clans from different tribes, who came together over centuries, could form a homogeneous community living on fishing unlike the broader Bidhan community's nomadic desert lifestyle.

Data was collected through observations, interviews and a historical approach. The information gathered through the observations helped interview some Imraguen individuals to probe for further information. The historical method helped understand the community's genealogical, cultural and functional/vocational characteristics for a better understanding of the community's current status and how it maintained its fishing profession and inter-community relations over the years.

Keywords: Mauritania, Imraguen, Tribe, Bidhan, Fishing

دور مهنة الصيد في بناء هوية تتجاوز القبيلة لدى جماعة "إيمراكن" في موريتانيا

يعقوب باهداه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية || جامعة محمد الخامس || المغرب

الملخص: تتناول الدراسة موضوعا مهما في الدراسات السوسيولوجية والانتربولوجية بصفة عامة، وفي المجتمعات ذات الطابع القبلي بشكل خاص. فالدراسة تسلط الضوء على حالة جماعة "إيمراكن" التي تكونت على أساس وظيفة واحدة تجمعُ أفرادَها، وحطمت الجماعة بذلك، الأطر التقليدية للقبيلة، في مجتمع تحظى فيه القبيلة بمكانة قوية، ومفصلية في حياة الأفراد وعلاقاتهم.

وقد هدفت الدراسة إلى كشف حيثيات العامل الوظيفي الموحد لهذه الجماعة، وهو الصيد، وكيف تجمعت أسر وبطون من قبائل شتى، لتشكل على مدى قرون، جماعة موحدة، تعيش في بيئة بحرية، بعيدا عن نمط الحياة السائد في محيطها من مجتمع "البيضان" في موريتانيا، والقائم على الترحال والحياة البدوية، متأثرا بالبيئة الصحراوية.

وقد استخدمنا في الدراسة المنهجين الكيفي والتاريخي، فالمنهج الكيفي ساعدنا على التقرب أكثر إلى واقع "إيمراكن" من خلال الملاحظة بالمعاينة والمراقبة، والحصول أيضا على معلومات مهمة من خلال مقابلات مع أشخاص من إيمراكن، لأجل الإحاطة بالموضوع. أما المنهج التاريخي فساعدنا على الاطلاع على تاريخ الجماعة، ومعرفة خصائصها الجينالوجية والثقافية والوظيفية، وذلك لفهم واقعها الحالي بشكل أفضل، وكيف حافظت عبر الزمن على تخصصها في مجال الصيد، وعلى وحدتها وترابطها.

الكلمات المفتاحية: موريتانيا، القبيلة، البيضان، إيمراكن، الصيد.

1- المقدمة

رغم تطور البنيات الاجتماعية والأدوار الوظيفية للأفراد والمجموعات، في المجتمعات العربية والمغاربية تحديدا، إلا أن حضور القبيلة ودورها ظل يحافظ على مكانة متقدمة، في بعض البلدان.

وفي الوقت الراهن ما زالت مجتمعات قائمة على أساس قبلي، إذ إن القبيلة هي الواجهة الأبرز في الحياة العامة، وفي التنظيمات السياسية والاجتماعية، وفاعل أساسي في ديناميكية المجتمع. وهذه الحالة تنطبق على موريتانيا، التي يقوم المجتمع العربي فيها (البيضان) على أساس قبلي بحت، فالقبيلة هي التعريف الشخصي للفرد، وهي مرجعه الذي قد يكون أولى وأهم من الدولة[1].

فالمجتمع يرتكز على القبيلة بصفتها مرجعية ليس فقط للفرد والأسرة، وإنما للمنظومة المجتمعية بكاملها، وبالتالي فإن بعض الإشكاليات ما زالت مطروحة، مثل علاقة الدولة/ السلطة بالقبيلة، ودور القبيلة في الحياة العامة، والأدوار التي يختص بها رؤساء القبائل في المجال المحلي، وذلك رغم التطور البنيوي لمنظومة الدولة، وتطور الممارسة السياسية على مدى ستة عقود تقريبا.

ومن هذا المنطلق، تأتي أهمية دراسة حالة جماعة إيمراكن، التي تمثل استثناءً في جزء كبير من أنماط العيش السائدة في محيطها، وكذلك اختلافها عن بقية الجماعات الأخرى في مجتمع البيضان، والتي تقوم في الحالة الاعتيادية على أساس قبلي. كما أن علاقة الجماعة مع الدولة والسلطة، تحتاج للفحص والتأمل.

يضاف لذلك استشراف مستقبل الجماعة في ظل التغيرات المحيطة بها، خصوصا في الجانب الاقتصادي، وتحديدا قطاع الصيد البحري، الذي تتمحور حياتها حولها.

مشكلة الدراسة:

يعد موضوع القبيلة أحد قضايا النقاش الكبرى في موريتانيا، سواء على المستوى العلمي من خلال الدراسات والبحوث، أو من خلال الطرح السياسي والإعلامي. وكما هو حال بعض المجتمعات العشائرية العربية، فإن القبيلة هي محور رئيسي وركيزة أساسية في الحياة العامة.

لكن المعروف أن القبيلة تتألف عادة من عشائر و"أفخاذ" يجمعها النسب أو التحالف التاريخي، لكن حالة جماعة إيمراكن تعد فريدة، فهي كيان يضم مجموعات من قبائل شتى، عاشت تحت سقف واحد، وتجمعها مصلحة اقتصادية مشتركة، تتمثل في مهنة الصيد، التي تخصصت فيها منذ أمد بعيد، وباتت هي المكون الأساسي لهويتها، بعيدا عن الانتماء القبلي العشائري الضيّق.

من هنا فإن المشكلة المطروحة في الدراسة، هي حالة التعايش الفريد بين مكونات قامت على أساس اقتصادي بحت، وفي بيئة بحرية، وذلك في محيط جغرافي واجتماعي يكون التجمع فيه عادة على أساس قبلي عشائري، ويسود فيه نمط الحياة البدوية.

تساؤلات الدراسة:

1- ما طبيعة مجتمع البيضان العربي في موريتانيا؟
2- كيف تشكلت عبر قرون بنية وهياكل البيضان وكيف هي الآن؟
3- كيف تأسست جماعة إيمراكن ولماذا تخصصت في صيد الأسماك حصرا؟

---

(1)باهداه، يعقوب، **القبيلة والدولة**: التنمية المحلية من خلال ثنائية العلاقة.. وتجربة تمدين الرُحل في موريتانيا، بحث لنيل الماستر في علم الاجتماع، كلية الآداب/ آكدال، جامعة محمد الخامس، 2013، ص3.

4- كيف تحولت مهنة الصيد إلى آلية جامعة لمكونات مختلفة في بيئة صحراوية؟
5- ماذا يعني تأسيس هوية خاصة تتجاوز الإطار القبلي العشائري؟
6- كيف تؤثر الجغرافيا وطبيعة البيئة على الحياة العامة وبناء الهوية؟
7- ماذا عن المستقبل الاقتصادي والاجتماعي لجماعة "إيمراكن"؟

أهداف الدراسة

تسعى الدراسة لرصد وتحليل واقع المجتمع العربي في موريتانيا، وتهدف تحديدا لتسليط الضوء على جماعة إيمراكن، التي تمثل حالة نراها تستحق الدراسة، وذلك عبر تحقيق الأهداف التالية:

1. التعرف عن قرب على طبيعة المجتمع العربي في موريتانيا (البيضان) وخصوصياته.
2. التعرف على البنى القبلية والعشائرية وكيف تشكلت، وكيف تأقلمت مع الواقع السياسي والجغرافي للمنطقة.
3. التعرف عن قرب على جماعة إيمراكن المتخصصة في صيد الأسماك في سواحل موريتانيا.
4. دراسة إيمراكن من زوايا بيئة العيش، وآلية العمل، والبنية الداخلية للجماعة.
5. استشراف مستقبل الجماعة ومدى قدرتها على الصمود وتطوير آليات العمل.

أهمية الدراسة

تتجلى أهمية الدراسة من خلال ثلاث نقاط أساسية:

1. كونها تقدم لمحة عامة عن مجتمع غير معروف بما فيه الكفاية في الدراسات الاجتماعية والتاريخية العربية.
2. لأنها تقدم صورة مقربة لواحدة من الجماعات التي تأسست حول وظيفة واحدة وجامعة، وهي حالة ليست منتشرة في الوطن العربي.
3. التركيز على تداخل البيئة مع الاقتصاد والتنمية، وتأثير ذلك على المجتمعات المحلية، ومستقبلها في ظل المتغيرات الكبيرة على كافة المستويات.

حدود الدراسة

- **أولا/ الحدود الموضوعية**: تنحصر في دراسة القبائل العربية الموريتانية، وكيفية تشكل كيان خاص يتجاوز القبيلة الواحدة، في محيط عشائري.
- **ثانيا/ الحدود المكانية**: موريتانيا، وتحديدا ساحلها المطل على المحيط الأطلسي، وبشكل أخص المنطقة الواقعة بين مدينتي نواكشوط ونواذيبو، حيث تعيش جماعة "إيمراكن"
- **ثالثا/ الحدود الزمنية:** أُجري البحث خلال عامي 2017 و2018، ويدرس الحالة الراهنة، مع تسليط الضوء على التاريخ، للاستعانة به.

منهج الدراسة

اعتمدنا على المنهجين الكيفي والتاريخي، فالأول مكننا من معايشة الواقع عن قرب، من خلال الرصد والمتابعة والمقابلات المباشرة. والثاني (التاريخي) ساعدنا في استحضار المعلومات والخلفيات.

مفاهيم الدراسة

1. البيضان: المجتمع العربي في موريتانيا (ومناطق من دول الجوار) وهو خليط عربي من القبائل المهاجرة مع بعض السكان الأمازيغ، وينقسم وظيفيا إلى محاربين وزوايا.
2. بنو حسان: أو "حسان" التجمع العربي الأكبر ويضم عددا من القبائل، وهم المحاربون وحاملو السلاح.
3. الزوايا: تطلق على مجموعة قبائل تختص بالعلوم الدينية واللغوية ولا تحمل السلاح في الغالب.
4. إيمراكن: جماعة تضم مجموعات من قبائل عدة، وتختص بصيد الأسماك حصرا.

الدراسات السابقة:

لا توجد دراسات علمية شاملة باللغة العربية تتناول جماعة إيمراكن، فأغلب المكتوب باللغة العربية هو مواد صحفية، لذلك فإن أغلب الدراسات المتوفرة هي باللغات الأجنبية، خصوصا الفرنسية. لذا كان لزاما علينا العودة إليها للاستنارة بها والاستدلال بما توصلت إليه عند الحاجة.

كما وقفنا على دراسات أخرى تتناول موضوعات قريبة أو متقاطعة مع موضوع هذه الدراسات.

ومن أبرز الدراسات السابقة في هذا المجال:

- دراسة الباحث الفرنسي سيباستيان بولاي Sébastien Boulayالصادرة في كتاب عام 2013 يحمل عنوان "صيادو إيمراكن في الساحل الأطلسي..التحولات التقنية والتغيرات الاجتماعية منذ السبعينات وحتى الآن".

Boulay, Sébastien, Pêcheurs imraguen du Sahara atlantique: mutations techniques et changements sociaux des années 1970 à nos jours, Karthala, Paris, 2013.

يعد هذا الكتاب أشمل دراسة تتناول موضوع هذه الجماعة، وقد استخدم أدوات بحث ميداني وتاريخي للوصول إلى معلومات علمية مهمة، عن تاريخ الجماعة وتشكلها وطبيعة عملها. لكن الجانب الأهم في الدراسة هو رصد مجمل التغيرات التي شهدتها على مستوى عملها في الصيد وكذلك في بينتها الاجتماعية.

ورصدت الدراسة كيف "نجت" جماعة إيمراكن من تغيرات شهدها البلد في القرن العشرين، كالجفاف وتأثيرات التغيرات الحضرية الكبرى. وترصد الدراسة كيف تأقلم إيمراكن مع إعلان منطقة حوض آركين محمية وطنية عام 1976. باختصار يقدم البحث صورة عن كيفية تمكن هذه الجماعة من البقاء والصمود في مواجهة كل الصعوبات.

- دراسة الباحث الفرنسية ـ الموريتانية كاترين تن ـ الشيخ، Taine-Cheikh, Catrine والتي حملت عنوان: "الاثنيات "الخيالية" ولغاتها: مثال جماعتي إيمراكن والنمادي"، والصادر عام 2013 في مجلة معهد اللسانيات في لوفان ـ بلجيكا.

Taine-Cheikh, Catrine, Des ethnies chimériques aux langues fantômes: L'exemple des Imraguen et Nemadi de Mauritanie, dans « Cahiers de l'Institut de Linguistique de Louvain » pp.137-164, 2013.

بحثت هذه الدراسة في أصول ثقافة جماعتي إيمراكن والنمادي (المتخصصة في الصيد بالكلاب)، من خلال عامل اللغة. فرغم أن إيمراكن يتحدثون الحسانية العربية السائدة لدى مجتمع البيضان في موريتانيا، إلا أن الدراسة تحفر في أعماق التاريخ للبحث عن أصول لبعض الكلمات والدلالات اللغوية المرتبطة بجماعات غابرة، قد يكون بين مكونات إيمراكن اليوم بعض أحفادها.

- دراسة الباحث المغربي الصحراوي رحال بوبريك، المعنونة بـ: "المدينة في مجتمع البداوة: التاريخ الاجتماعي لولاته خلال القرنين 18 و19، مع تقديم ونشر تاريخ ولاته"، والصادرة عام 2002.

تتمثل أهمية هذا الكتاب في كونه يدرس حالة تأسيس مجتمع حضري في وسط بدوي، على أساس تحالف قبلي. ويدرس هذا الكتاب قضية مهمة في التاريخ الاجتماعي لقبائل البيضان في موريتانيا، ألا وهي علاقة القبائل التي هي في غالبها من البدو الرحل، بالمدينة وطريقة بناء التجمعات فيها، ويدرس الكتاب حالة التجمع في مدينة ولاته التي تعد من أقدم الحواضر في المنطقة.

ورغم أن ولاته تعد واحدة من أقدم وأشهر الحواضر العلمية التي انتشرت فيها العلوم والفنون وبها كنوز من المخطوطات والآثار إلى غاية اليوم، إلا أن الكتاب يركز على تقديم صورة لنوع آخر من تأسيس التجمعات في مجتمع يعيش غالبه في محيط بدوي، وهو يمثل وجها آخر للتأسيس الحضري لمجتمع قبلي، ورغم المسافة المتباعدة جغرافيا بين منطقة إيمراكن على ساحل الأطلسي، وولاته في أقصى الجنوب الشرقي لموريتانيا، فقد فضلنا الاستئناس بهذه الدراسة.

فولاته قامت على نمط بدوي ومرجعيات ثقافية غارقة في البداوة والقيم القبلية، فهي مركز بدوي أكثر مما هو حضري، رغم كونه مركزا مستقرا.

يقدم هذا العمل رؤية عن روايات و"أسطورة" التأسيس، والعلاقات بين المجموعات القبلية داخل المدينة، وعلاقاتها الخارجية، والعداء بين بعض مكونات تجمع سكان ولاته ببعض "الغزاة المحتملين". كما يبحث الكتاب في توزع التخصصات بين الأعيان، من خلال الوظائف، وكيف يتم توريث تلك الوظائف فيما بعد.

ـ المحور الأول: مجتمع البيضان وخصوصيته

أخذت معظم القبائل الموريتانية العربية شكلها النهائي تقريبا قبل قرنين إلى قرن، على أقرب تقدير، وهو على أساسين إما النسب الجامع، سواء كان حقيقيا أو وهميا، وإما العصب، أي التحالف المفضي إلى الاندماج.

تصنف التقسيمات الكبرى هذا المجتمع على أسس ثلاثة مرتكزات، إذ نجد، القبائل المحاربة، وقبائل الزوايا المشتغلة بالعلوم الدينية واللغوية، ثم طبقة عاملة، وفيها أربع مجموعات هي العبيد والصناع والمطربون والأتباع ("اللحمة" بالنسبة لأتباع المحاربين و"التلاميذ" بالنسبة للزوايا)، ولكل منهم أدواره في خدمة طبقتي المحاربين والزوايا.

لكن الانتماء لإحدى هذه الفئات الثلاث، لا يتطابق مع الانتماء لقبيلة، بمعنى أن كل فئة تضم عشرات القبائل المنسجمة أو المتنافرة والمتقاتلة أحيانا، فلم يكن لطبيعة فئة القبيلة، أي دور في خلق حالة انسجام عام داخلها.

1.1 فئات مجتمع البيضان

قبائل المجتمع العربي في موريتانيا، في غالبها هي قبائل عربية أو أمازيغية تعرّبت، وباتت تعرف بـ"البيضان" أو "البيظان" حسب النطق المحلي، ولها امتدادات في شمال مالي وجنوب الجزائر والمغرب والصحراء، وهي المجموعة التي درج على تسميتها بالفرنسية Les Maures، وهو اسم أُطلق تاريخياً، على أكثر من شعب في شمال إفريقيا، ومنه أخذت موريتانيا اسمها الحديث، عندما أطلقه الفرنسيون بعد احتلالهم لها مطلع القرن العشرين.

كما توجد في الحيز الجغرافي الموريتاني أيضا، قبائل زنجية إفريقية، وتقطن أساسا على ضفة نهر السنغال.

ويمكن تلخيص تقسيم المجتمع العربي الموريتاني (البيضان)، على النحو الآتي:

- الزوايا: اشتقت تسميتهم من زوايا العلم، وهم قبائل من صنهاجية والأمازيغ وبعض العرب الوافدين، وينحدر بعض هذه الفئة من سكان قدماء مثل مجموعات لمتونه ومسوفة وكدالة وجزولة، وبعضها وافد؛ مثل غالبية مكونات تجمع تشمشه القبلي.

ويشتغل الزوايا بالدين والعلوم ودراسة اللغة العربية والأدب والشعر، ويجنحون في الغالب إلى السلم، ورغم ذلك كان بعضهم يحمل السلاح للدفاع عن النفس كما قامت بينهم عدة حروب بعضها دام لسنوات. وغالبية هذه

المجموعة هي من الأمازيغ وصنهاجة[2]، كما تضم فئة الزوايا قبائل عربية أخرى لا تنتمي إلى بني حسان، ومنهم من يعرفون بعرب الأمصار وضمنهم بعض أكبر قبائل موريتانيا اليوم، وكذلك التحقت بمجموعة الزوايا، مجموعاتُ أخرى من العرب (بنو حسان) فيما كان يعرف بـ"التوبة"، فأصبح شائعا مسمى "تياب بني فلان" أو "طلْبة بني فلان".

- **بنو حسان:** قبائل عربية وافدة من شبه الجزيرة العربية، عبر هجرة طويلة مرورا بشمال إفريقيا.

يطلق عليهم أيضا حسان اصطلاحا، نسبة إلى جدهم حسان بن مختار المعقلي، وهم العرب الوافدون حملة السلاح، الذين فرضوا وجودهم بالقوة وأخضعوا بقية المجموعات، عرفت بعض قبائلهم حروبا داخلية ومع أطراف أخرى. وكما أن فروعا منهم كانت تمارس الاعتداء قطع الطرق.

وأسس بنو حسان ثلاث إمارات وعدة رئاسات قبيلة قوية، في مناطق متباعدة من موريتانيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، مع ملاحظة وجود إمارتي إدوعيش في تكانت، ومشظوف في الحوض الشرقي، وهما سلاليا من صهناجة الصحراء، وليسوا من بني حسان، غير أن المنظومة الجمعية للثقافة البيضانية تطلق عليهم اسم وصفة "العرب" لمحافظتهم على سلاحهم وشكوتهم. وظلت هذه الإمارات قائمة حتى بعد دخول الاستعمار الفرنسي (1903). وفرض بنو حسان لهجتهم "الحسانية" وهي لجهة عربية متأثرة بالأمازيغية، منتشرة في موريتانيا وأجزاء من المغرب والجزائر ومالي.

- الأتباع: وهم أربع فئات:
  - العبيد (أصولهم في الغالب إفريقية) والمحررون منهم يطلق عليهم "الحراطين".
  - اللحمة أو آزناكه (أصولهم في الغالب صنهاجية من الغارمين وبعضهم من أصول حسانية).
  - لَمْعلمين أو الصناع التقليديون (لا يوجد إجماع على تحديد أصولهم).
  - المطربون (إيكاون).

وقد خضعت هذه المجموعات لمنطق القوة العسكرية من العرب أو القوة الروحية من الزوايا[3]. وعموما فإن التابع غير مرتبط بأصل نسبي أو اثني معروف، بل هو يعيش في مرتبة اجتماعية محددة، وفق ظروف خاصة، فمثلا بعض آزناكه (الأتباع الغارمون) من أصول حسانية[4]، وأيضا صنهاجية، لكنها لم تعد تعني شيئا مع وضعهم الجديد، ومن المستحيل أن يعودوا إلى مكانتهم السابقة.

---

(2)تتواتر مصادر متعددة من كتب التاريخ على الأصل العربي لصنهاجة، ومن أبرز القائلين بذلك الطبري والهمداني وابن الأثير والسيوطي والفيروز آبادي وياقوت الحموي وغيرهم، وذلك ما تعتد به قبائلهم في موريتانيا والتي تنسب نفسها إلى حمير اليمنية، وإن كان ابن خلدون نفى ذلك، وقال إنهم أمازيغ (بربر).

(3) Marchesin, Philipe, « Tribus, ethnies, et pouvoir en Mauritanie », Collection "Hommes et Sociétés", Khartala, Paris, 1992, p.25-30.

(4) Ould Cheikh, Abdel Wedoud, Nomadisme, islam et pouvoir politique dans la societe maure precoloniale (XIeme siecle - XIXeme siecle): essai sur quelques aspects du tribalisme, These de doctorat, Univ Paris 5, 1985 p400.

2. الحالة الراهنة للمجتمع القبلي:

بحسب بعض الباحثين[5]، فإن الشكل الحالي لمجتمع البيضان في موريتانيا، بدأ في التشكل منذ القرن الرابع عشر ميلادي (الثامن الهجري)، بعيد دخول قبائل بني حسان للحيز الجغرافي لموريتانيا الحالية، وخوضها لحروب عدة، مع السكان الأقدم من القبائل الصنهاجية (خاصة اللمتونية) والزنجية.

وقد كان وصول بني حسان ذا بعد رمزي بالنسبة لهم، ذلك أن مسيرتهم التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية مروراً بمصر و تونس و المغرب، عرفت الكثير من المناوشات والحروب، وعدم الاستقرار، في حين كانت الأرض الموريتانية، بالنسبة لهم ذات خصائص مهمة، إذ تشبه الجزيرة العربية من الناحية الجغرافية والبيئية، وهي أيضا نهاية المجال الجغرافي العربي- البربري، وبعده مباشرة تبدأ حدود البلاد الإفريقية الزنجية (بلاد السودان) حيث يبدأ تغير لون السحنات، ويتغير اللسان. فموريتانيا إذن كانت بالنسبة لبني حسان، نهاية رحلة طويلة، بتعبير عبد الودود ولد الشيخ[6].

بسط بنو حسان سيطرتهم، وأقاموا إمارات في مختلف أنحاء موريتانيا، ونشروا قيم ثقافتهم متجلية في اللغة العربية واللهجة الحسانية، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي[7].

ومن هنا يبرز تشكّل مجموعة قبلية ستؤول إليها السلطة المحلية فيما بعد دولة المرابطين[8]، وسيحكم انتماؤها العربي، وطبيعة ممارساتها السلطوية علاقاتها ببقية مكونات المجتمع.

ولابد من الإشارة إلى مسألة مفصلية في تقسيم الأدوار بين فئات البيضان، فقد ورث بنو حسان (العرب) عن المرابطين السلطة السياسية والعسكرية، بينما اكتفى الزوايا. مع أن بعضهم جينالوجيًا من أحفاد المرابطين . بوراثة الجانب الديني والعلمي للمرابطين، حتى أن مفردتي "المرابط" و"الزاوي" متطابقتان في أوقات كثيرة، ولكن "المرابط" تُجْمعُ غالبا على "الطلْبة" وهو مصطلح شائع في شمال إفريقيا. وفي موريتانيا تحمل صفة "المرابط" . خصوصا إن نطقت بالتصغير. معان قد تكون قدحية، بمعنى أنها تذم المرابط بأنه "خانع" أو "متخاذل"، ولكنها أيضا تعني "السيد" بالنسبة للعبيد أو العبيد السابقين.

وكان الباحث الأميركي شارل ستيوارت، أول من اهتم بشكل كبير بمحاولة تطبيق نظرية الانقسامية، على مجتمع البيضان، من خلال تطبيقاته لملاحظات غيلنر، في إطار مساهمة قدمها ستيوارت في كتاب(Arab and Berbers) عام 1975، بالإضافة إلى أطروحته عن دور الشيخ سيديا الكبير[9]، وهو أحد الزعماء الدينيين والقبليين البارزين في جنوب غرب موريتانيا، خلال القرن التاسع عشر.

يحوّل ستيورات عنصر الانقسام إلى مبدأ تفسيري، يتناول من خلاله كل مسألة اجتماعية أو سياسية في المجتمع العربي الموريتاني. إنه المبدأ الذي لن يقصر على عنصر الوساطة لدى الزوايا، بل سيتجاوزه، وذلك بتقسيم

---

(5)ولد السالم، حماه الله، تاريخ موريتانيا: العناصر الأساسية، منشورات الزمن، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2011. ص 14.

(6) Ould Cheikh, Abdel Wedoud, « Eléments d'histoire de la Mauritanie », Première édition, Collection "connaissance de la Mauritanie" Centre culturelle français, Nouakchott, Mauritanie, sans date, p.41.

(7)ولد السالم، مرجع سابق، ص 107. وبوبريك، رحال، المدينة في مجتمع البداوة: التاريخ الاجتماعي لولاته خلال القرنين 18 و19، مع تقديم ونشر تاريخ ولاته"، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ص7.

(8)ولد السالم، ص 107.

(9) Stewart, Charles Cameron, "Islam and Social Order in Mauritania: A Case Study from the Nineteenth Century", (Oxford Studies in African Affairs), Oxford University Press , Oxford, UK, 1973.

المجتمع إلى مجموعتين متكاملتين: زوايا مسالمين وماهرين في الإنتاج، إلى جانب محاربين أقوياء يتمتعون بالقدرة على الحماية[10].

وهما في نظره مجموعتان عشائريتان انقساميتان تمتازان بالترابط والتنافس، في شكل تقابلي تكاملي. بمعنى أن الصراع و الانقسام يفتقران دائماً إلى سياسة سلطوية مسيطرة، وبالتالي يعيش الصراع تكافؤاً مستمراً، خصوصاً أن الزوايا يعيشون حياة أكثر رخاءً من حياة حسان، وذلك ما يجعلهم بحاجة إلى حماية حسان. وكذلك فإن قبائل حسان بحاجة إلى الزوايا للحصول على المياه، ومداخيل الصمغ العربي، والتربية الدينية[11].

وقد انتقد بعض الباحثين طرح ستيوارت، معتبرين أن انقسام الزوايا وحسان لم يكن على أساس عرقي أو اثني، بل على أسس دينية وإيديولوجية وسياسية، فبعض القبائل الزاوية، تنتسب إلى حسان، كما هو حالة قبيلة إديقب (اليعقوبيون)، الذين يعتبرون من أبرز مكونات حلف "تشمشه" في الزوايا، مع أنهم منتسبون سلاليا إلى بني حسان[12]. وتنطبق هذه الحالة على قبائل أخرى عربية لكنها اختارت نهج الزوايا، وصارت تصنف منهم، كما أن بعض قبائل الزوايا عربية النسب، وأسست وفق مبادئ الزوايا، حتى وإن كانت حملت السلاح للدفاع عن النفس.

وإن كان بعض الباحثين يرى أن البنية القبلية لمجتمع البيضان تستجيب لأطروحة الأنتربولوجيا الانقسامية عبر جدلية الانقسام والانصهار، فالنظام القبلي مؤسس على آليات الاندماج الداخلي بين أقسام القبيلة التي تتمحور حول العصبية، وهي كذلك تعيش تصارعاً أفقياً، يمنع نشأة التمركز.

والمجتمع العربي الموريتاني بهذا المعنى، ذو قبيلة "لا رأس لها"، على الرغم من وجود أشكال جنينية لتقاطب السلطة المركزية، ممثلة في القبائل الحسانية، ذات النفوذ السياسي والعسكري من جهة، وقبائل الزوايا المشتغلة بالدين وعلومه، وذات رأس المال الرمزي الديني والثقافي، من جهة أخرى[13].

ـ المحور الثاني: خصوصية جماعة إيمراكن

جماعة "إيمراكن" Imraguen، واسمهم هو كلمة أمازيغية قديمة تعني الصيادين، مفردها "آمريك" للمذكر و"تامركيت" للمؤنث، ويمكن وصفها بالكونفدرالية المتجاوزة لحدود القبيلة الواحدة، فقد قامت على أساس مختلف تماما عن ما هو سائد في محيطها، لذلك فهي نموذج فريد لتجمع مستقر، في مجتمع ظل قائماً على الترحال. وتقطن إيمراكن في مجال محدود على ضفة المحيط الأطلسي، ومتخصصة بشكل كامل في صيد السمك، منذ عشرات الأعوام، ولم تتخل عن هذه المهنة التي يمارسها أفرادها حتى اليوم.

وإيمراكن بحسب بعض الباحثين من أولى المجموعات التي تكلمت اللهجة الحسانية، رغم أنهم كانوا يتحدثون لغة خاصة بهم حسب الباحثة كاترين تن. الشيخ، هي مزيج من الحسانية و"آزير"، وهذه الأخيرة لغة منقرضة عبارة عن مزيج من الأمازيغية ولغة مجموعة السوننيكي الإفريقية[14].

---

(10)ولد محفوظ، عبد الوهاب، القبيلة في موريتانيا: بين التأصيل التاريخي والتحليل السوسيولوجي، مجلة إضافات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 14، ربيع 2011، ص 125. 150.

(11)ولد محفوظ، المرجع السابق.

(12)ولد محفوظ، المرجع السابق.

(13)بوطالب، محمد نجيب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه، بيروت، 2002، ص 95.

(14) Taine-Cheikh, Catrine: Des ethnies chimériques aux langues fantômes: L'exemple des Imraguen et Nemadi de Mauritanie, dans « Cahiers de l'Institut de Linguistique de Louvain »,2013,pp.137-164.

وجماعة إيمراكن خليط من قبائل وأعراق شتى، ومنهم بعض أحفاد شعوب قديمة في المنطقة كالبافور[15]، والمعروف أن البافور شعب قديم، كان يسكن الواحات ونزح نحو الجنوب بفعل الجفاف ودخول صنهاجة الرحل، ملاك الإبل، في القرنين الثاني والثالث ميلادي، وقد خضع من بقي منهم لسيطرة صنهاجة[16].

ولا يتماثل مع إيمراكن في التخصص غير "النمادي"، وهم جماعة تعيش في الصحراء شمال شرق موريتانيا، ومتخصصة في الصيد البري، باستخدام الكلاب المروّضة، وما زالت تعيش في مجالات برية بعيدة عن المدن والمناطق الحضرية، معتمدة على طرق العيش التقليدي نفسها، منذ فترة طويلة.

تميزت إيمراكن عن غيرها بعملها في البحر، الذي كانت القبائل الأخرى تبتعد عنه، ولم يغير قيام الدولة الحديثة، والتطور العمراني والحضري من طبيعة عمل "إيمراكن"، فلا تزال الجماعة تحافظ على تخصصها الذي هو مصدر عيشها.

وحتى اليوم ما زال تمسك إيمراكن بتقاليدهم في الصيد يثير الانتباه، خصوصا مع تطور آليات ووسائل الصيد، ووجود شركة عمومية تابعة للدولة، وشركات خصوصية محلية ودولية. وهو ما يطرح إشكالية علاقة الجماعة بمحيطها وبالسلطة، خاصة وأن غالبية الجزر وأشباه الجزر التي تسكنها، تقع في نطاق "حوض آركين" وهو محمية طبيعية ذات بعد عالمي، صنفتها اليونسكو منطقة من التراث الإنساني العالمي عام 1989[17]، وهو ما يمنحهم استقرارا مستداما لعمليات الصيد، رغم ضعف الوسائل، ذلك أن الصيد محظور في المنطقة على السفن التجارية، وحتى القوارب التي تستخدم محركات، فالمسموح به في محيط المحمية هو القوارب الشراعية فقط، وهي ذاتها التي يستخدمها إيمراكن في الصيد، إضافة للصيد بالشباك مباشرة من خلال دخول الرجال إلى البحر، مستعينين بخبراتهم المتراكمة، وبترويضهم للدلافين التي تساعدهم في الصيد.

وتوجد جماعة إيمراكن في نقاط داخل المحمية وخارجها، بدءاً من قرية بلواخ، ورأس تيميريس Cap Timiris عند بلدة نوامغار جنوبا (نحو 180 كلم شمال نواكشوط)، في اتجاه المحمية شمالا، أي عند رأس أكادير Cap Agadir[18].

وتعود علاقة الجماعة بمنطقة المحمية لأزمنة غابرة، لكن العلاقة مع "المؤسسة الوطنية لحوض آركين" بدأت مع إنشاء هذه المؤسسة عام 1976 والتي تعمل في منطقة تغطي حوالي 30% من ساحل موريتانيا الأطلسي[19].

وتعيش الجماعة منذ عصور بعيدة، محصورة بين المحيط والرمال، ولا مورد لهم إلا ما يحتويه البحر من سمك، ويقول بعض الباحثين إن نواتهم الأولى كانت مجموعة هاجرت من واحات النخيل شمال البلاد، بسبب جفاف ضربها، كما ترى الباحثة الانثربولوجية الفرنسية ايلين آرتو، والتي سبق أن درست النشاط الاقتصادي لـ"إيمراكن"[20].

وحين ننظر إلى خصوصية إيمراكن، فهي تتجلى في عاملين أساسيين هما طريقة تأسيس الجماعة ونشاطها المحصور في الصيد. في الثانية نجد مثيلا إلى حد ما في التخصص، هو جماعة النمادي التي تخصصت في الصيد البري بالكلاب المدربة، كما أشرنا سابقا. أما في ما يتعلق بالتأسيس فالحالة فريدة في الشكل، وإن كانت تتقاطع في المبدأ مع حالات تأسيس المدن القديمة في موريتانيا. فإذا نظرنا مثلا إلى بداية تأسيس المدن أو التجمعات السكانية، نجد أن

(15)Ibid.

(16)Marchesin, Philipe,op. cit, p42.

(17)http://whc.unesco.org/en/statesparties/MR/

(18)Taine-Cheikh, Catrine, op. cit, p22.

(19) Boulay, Sébastien, Pêcheurs imraguen du Sahara atlantique: mutations techniques et changements sociaux des années 1970 à nos jours, Karthala, Paris, 2013, p10.

(20)لقاء على الانترنت ديسمبر 2014

طابعها كان في الغالب قبلياً أحاديا، ومن ثم يأتي العامل الاقتصادي ليكون سببا للاستقرار ومواصلة العيش وفي حالات قليلة انضمام مجموعات جديدة. وهذه الحالة قد تنطبق على "ولاته" التي تأسست بحسب بعض الروايات في القرن العاشر الميلادي، وقد تنطبق أيضا على أحدث تجمع حضري تأسس في القرن العشرين.

ويرى بعض الباحثين أن المدينة لم تخلق بديلا يؤسس لقطيعة اجتماعية مع المحيط، بل إن القبيلة ظلت الثابت الذي يؤطر جميع مظاهر الحياة داخل المدينة [21].

المحور الثاني: النسب والمجال الجغرافي وتقسيم العمل عند إيمراكن

1.2.النسب والمجال الجغرافي

ينحدر إيمراكن سلاليا من أعراق مختلفة، فعلى مدى أكثر من ستة قرون امتزجت فيهم دماء العرب والأمازيغ والأفارقة السود وحتى الأوربيين.

لذلك فإن الرابط الموحِد لهذه الجماعة ليس الجينيالوجيا، بقدر ما هي مصالح مشتركة في منطقة جغرافية محددة. وكما يرى بعض الباحثين الانقساميين أن الجينيالوجيا بصفتها رابطة قرابية حقيقية بين أعضاء جماعة ما، لا تتجاوز في الغالب حدود خط النسب، ومعنى هذا أنه ابتداء من المشترك الترابي، إلى القبيلة أو الاتحاد القبلي، لن نجد إلا روابط نسبية وهمية أو محددات ترابية {جغرافية} طاغية[22].

ويرى بعض الباحثين أن النسب في معناه الضيق لا يعدو كونه معطى وهميا، لا يصمد أمام وقائع الاختلاط وعلاقات الجوار والتعايش المكاني[23]. لذا نجد أن بعض أبناء إيمراكن إلى اليوم يولدون بعيون زرقاء، وهو أمر يرجعه بعض المهتمين، إلى كثرة وصول الغزاة والتجار الأوروبيين، بدءاً من البرتغاليين والهولنديين، وحتى البريطانيين والألمان والفرنسيين، كما أن عددا من السفن الأوروبية جنحت على الشواطئ الموريتانية، واندمج الناجون منها في مجتمع إيمراكن، ومن أشهر تلك السفن الفرقاطة "لا ميدوز"la Méduse التي غرقت سنة1816، ونجا منها 10 ركاب من أصل 150، بعد مأساة استمرت ثلاثة عشر يوما، وتخلدها لوحة Le Radeau de la Méduse أو "طوافة قنديل البحر"، في متحف اللوفر بباريس، للفنان تيودور جيريكو[24]، كما توجد قطعة سلاح من السفينة في المتحف الوطني في نواكشوط.

وهذا العامل قد يفسر لون البشرة الفاتح لـ"حراطين أهل بارك الله" و"تندغه الساحل"[25]، وتؤكد الروايات الشفوية قصص سيدات من أصول أوربية أنجب منهن رجال من إيمراكن، أشهرهن "آمينلا" الجدة العليا لفصيل من "حراطين أهل بارك الله" والواضح أن اسمها المحلي مشتق من اسمها الأصلي "مانويلا" وكذلك سيدة أخرى تعرف باسم أم اقفيفه[26].

يتوزع إيمراكن على أربع عشرة قرية تسمى القصور أو"الكصور" بعضها عبارة عن جزر، ينتمي سكانها إلى بعض قبائل البيضان المعروفة في باقي المناطق الموريتانية. وتعد شبه جزيرة نوامغار (اسمها الأصلي مامغار) أكبر تجمع سكني

(21) بوبريك، رحال، المدينة في مجتمع البداوة، ص8.

(22)الهراس، المختار، وآخرون، التحليل الانقسامي للبنيات الاجتماعية في المغرب العربي: حصيلة نقدية، في "نحو علم اجتماع عربي"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1989، ص 273

(23)بوبريك، رحال، دراسات صحراوية: المجتمع والسلطة والدين، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الثانية، 2008، ص 105

(24)http://www.louvre.fr/oeuvre-notices/le-radeau-de-la-meduse

(25)بنت حبيب، فريدة، ملحقة بإدارة البحث في الحظيرة الوطنية لحوض آركين وهي من ايمراكن، مقابلة في نواكشوط، نوفمبر 2017.

(26)ولد ادريميز، علي، أحد سكان نوامغار، مقابلة في نواكشوط، نوفمبر 2017.

ومنطقة الصيد الأهم، والأكثر مردودية اقتصادية، متبوعة بكل من جزر ايويك والرقيبة وتيشط، ثم جزر أريل وايويلي وكيجي.

وتشير تقديرات سكان نوامغار، إلى أن عددهم يبلغ نحو 700 شخص، أما بقية القرى فيتراوح عدد سكانها من 100 نسمة إلى 400[27]. كما توجد في النطاق الجغرافي لإيمراكن، بعض الجزر ذات البعد التاريخي، مثل جزيرة تيدره، التي يقول عدد من الباحثين إنها كانت مقر الرباط الذي أسسه عبدالله بن ياسين، وكان نواة لدولة المرابطين[28] بداية القرن الحادي عشر ميلادي، قبل انتقالها إلى آزوكي في آدرار بموريتانيا ثم آغمات في المغرب، قبل أن تستقر في مراكش، وتجعلها عاصمة دائمة، رغم أن عددا آخر من المؤرخين يقولون إن الجزيرة تقع في حوض نهر السنغال، الذي كان اسمه نهر صنهاجة.

كما سبق، فإن المرجعيات النسبية لمختلف مكونات إيمراكن، هي نفسها في بقية مجتمع البيضان، والاستثناء الوحيد هو "أولاد عبد الواحد" الذين يشكلون جزءا كبيرا من سكان شبه جزيرة نوامغار، والذين تقول الروايات الشفهية إنهم قادمون من منطقة سيدي إيفني في المغرب دون تحديد أصولهم[29]، ودون الخوض في تدقيق هذه المعلومة، إلا أنه من المعروف أن إيمراكن كانوا يتنقلون في المجال الشاطئي من طرفاية في جنوب المغرب، حتى جنوب نواكشوط، قبل أن يستقروا في مجالهم الحالي على الشاطئ الأطلسي بين نواكشوط ونواذيبو.

عموما، توجد خمس قبائل كبرى تشكل كيان إيمراكن، هي أولاد عبد الحميد، وأهل بارك الله، وتندغه (أهل بوحبيني)، والقرع، وأولاد بسباع، وجميع هذه القبائل، باستثناء أولاد عبد الواحد، لها كيانات قائمة بالاسم نفسه، في مجتمع البيضان، لكن فروعا منها اختارت الانزواء إلى البحر وتشكيل كيان قائم بذاته.

ومن ضمن الأربع عشرة قرية هي نطاقهم الجغرافي، توجد أربع منها خارج حدود محمية حوض آركين، هي محيجرات وتيوليت ولمسيد وبلواخ، وغالبية سكانها من تندغه.

كما توجد قريتان مهجورتان، هما الجريف وأوكج. والملاحظ هنا أن الاختلاط والتعايش بين أبناء القبائل المتعددة تحت سقف واحد، موجود في حالات متعددة، بين القرى، فمثلا يتعايش أولاد عبد الواحد في نوامغار مع مجموعتي أهل بوحبيني وأهل بارك الله، ويتعايش أهل بوحبيني وأولاد بسباع في إيويك، ويتعايش أولاد بسباع مع أهل بارك الله في تسط. أما بقية القرى (الجزر وأشباه الجزر) ففيها غالبية من قبيلة معينة، ومعها أسر من قبائل أخرى.

2.2 التراتبية الاجتماعية

على الرغم من خصوصية العامل الوظيفي الموحِّد لإيمراكن، وتلاحمهم حول وظيفة الصيد، غير أن لديهم خصائص متقاربة جدا مع تلك السائدة في مجتمع البيضان، كالعادات و التراتبية الاجتماعية للمكونات الداخلية.

فنجد فيهم العرب والزوايا واللحمة والحراطين (العبيد السابقون)، بينما يعد الفنانون طبقة مفقودة، وهذا الفراغ الطبقي تولد عنه فلكلور ثري، ورغم انتشار الأمية، إلا أن هناك غزارة في الإنتاج الشعري اللهجي، الذي تتغنى به الفتيات على وجه الخصوص. وجعلت قرون من التعايش، هذا الخليط يتجاوز إلى مدى بعيد، حدود الطبقات، ويتعايش تحت ظل واحد جامع.

وإذا نظرنا إلى التاريخ، نجد حالات التعايش التي تقوم على مصالح مشتركة، تتجلى أكثر في البيئات الحضرية أو شبه الحضرية، وليس في البيئات البدوية غير المستقرة. وهنا نستحضر حالة مدينة ولاته، التي ذكرت المصادر التاريخية

---

(27)بنت حبيب، مصدر سابق.

(28) Taine-Cheikh, Catrine, op. cit, p 23.

(29)ولد كوتل، نافع، أحد الإيمراكن، وموظف في وزارة الشباب والرياضة، مقابلة في نواكشوط، نوفمبر 2017.

أنها كانت تشهد حالة تعايش فريدة بين العرب والأمازيغ والزنوج وقوميات أخرى من بينها مجموعة من اليهود، ذكرت بعض الدراسات أنها كانت تشكل عنصرا محوريا في البنية الأساسية للمدينة[30].

3.2 اقتصاد مجتمع ايمراكن:

تتمحور الحياة الاقتصادية لمجتمع إيمراكن حول عملية الصيد، التي هي مبرر تجمعهم، ولكل قرية زعيم أو "الشيخ" بالاصطلاح الموريتاني المعروف، يتولى توزيع مهمات الصيد، فيعين شخصا يسمى الرائد، أو مجموعة "رواد"، يرصدون أسماك البوري عندما تقترب من الشاطئ، فيصيحون على زملائهم أن يضربوا البحر بالعصي، ويطلقوا نداءات بأصوات متفاوتة، ضمن عملية تسمى "التشييلة"، بهدف أن تدفع أسماك الدولفين بالبوري إلى الشاطئ مشكّلة حزاما خلفه، فقد درب إيمراكن الدلافين على مساعدتهم في صيد سمك البوري. وبحسب الباحث الفرنسي سيباستيان بولاي، الذي درس نمط الصيد عند إيمراكن، فإنهم يمارسون هذه المهنة منذ خمسة قرون على الأقل[31].

وقديما كان الصيد يتم على مجموعات، فعندما تقترب الأسماك يحدد الشيخ مجموعة تسمى "الكيسه" الأولى فالثانية والثالثة، وهو نظام ملزم للجميع، فحين تبدأ المجموعة الأولى في جمع السمك في شباكها يكون دور المجموعات الأخرى محاصرة أسماك البوري بمساعدة الدلافين، وعندما تملأ المجموعة شباكها تتبادل المهام مع إحدى المجموعات الأخرى.

وحين يُخرج الرجالُ السمك إلى الشاطئ، يبدأ دور النساء اللواتي تحملنه إلى القرية وتعالجنه، لاستخراج ثلاثة عناصر أساسية، هي البيض والزيت والسمك المجفف (المملح). والواقع أن "الشيخ" ليس سوى صياد ككل الأفراد، بامتيازات معنوية هي استقبال الضيوف في بيته وتنظيم عملية الصيد وتسوية الخصومات التي تنشب بين الأفراد والعائلات، من خلال المصالحة العرفية، فلا توجد مؤسسات قضائية أو قضاة في المنطقة.

وجرى العرف أن يرث الرجل الأكبر سنا رئاسة الحي، وليست الرئاسة مرتبطة في معظم قرى آركين بعائلة أو قبيلة واحدة، بل أو حتى طبقة، وهنا تظهر إحدى نقاط الاختلاف الجذري مع بقية مجتمع البيضان. فالشيخ الحالي لقرية نوامغار مثلا، أحمد ولد بيرام من أهل بارك الله، في حين أن أولاد عبد الواحد يشكلون غالبية سكان القرية، كما أن الشيخ الحالي حرطاني (فئة العبيد السابقين).

وقد عرف عن إيمراكن أنهم مسالمون، ولم يحملوا السلاح يوما، وكانوا حينما يودون اتقاء شر المجموعات المسلحة المعروفة باسم "الغزيان" قديما، يحملون النساء والأطفال على ألواح خشبية إلى الجزر القريبة من الشاطئ، ويحتمون فيها حتى يزول الخطر.

ويرجع استخدام الألواح الخشبية إلى أن إيمراكن الذين يتقنون السباحة، يعود أول عهد لهم باستخدام السفن إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بعد احتكاكهم بالبحارة القادمين من جزر الكناري الإسبانية. بيد أن الهروب لم يكن منجاة دائما، فإمارة الترارزه فرضت منذ ما قبل منتصف القرن 19م، غرامة ألف سمكة بوري، وعدد مساو من البيض كل شتاء على إيمراكن، وكمية من زيوت السمك، وذلك مدة عقود من الزمن، ووثيقة هذه الإتاوة موجودة لدى رجل من أولاد عبد الواحد في نوامغار يدعى عبدم، ويعود تاريخها إلى 1830م [32]. وظلت هذه الإتاوة سارية المفعول حتى ألغاها المستعمر الفرنسي.

---

(30) بوبريك، المدينة في مجتمع البداوة، ص13.

(31) Boulay, Sébastien, Statut d'exception du Mulet jaune dans la société maure (Mauritanie): gibierdes pêcheurs imrâgen, viande des pasteurs nomades, *Anthropozoologica*,2010, 45/1, p101-114.

(32) مقابلات مع أفراد من إيمراكن

ومن المعروف أن إمارة الترارزه، كانت تسيطر على منطقة الترارزه بما فيها العاصمة نواكشوط حاليا، ومناطق قرب المجال الجغرافي لإيمراكن. وهنا تجدر الإشارة إلى أنه قبل مستهل القرن العشرين لم يكن إيمراكن يبيعون السمك، بل يأكلونه، ويهدونه إلى زوارهم الذين يحملون إليهم في المقابل الحبوب والشاي والملابس، في عملية مقايضة غير مباشرة، تجد نظيرا لها في الفترة نفسها، في منطقة "شمامه" الزراعية الواقعة على نهر السنغال، خلال موسم حصاد الذرة، ولدى المنمين البيضان الرحل، في ما يعرف "الإحسان"، أو "لحسان" وتعني "كرم الضيافة"، في اللهجة الحسانية.

وخلال فترات الصيد، يأتي العديد من الأفراد أو الأشخاص الآخرين المرتبطين بإيمراكن، للاستفادة من مزايا السمك، مثل الزيت وخاصة أثناء فترات القحط، وهو ما يشبه فترة نقاهة علاجية. ويمكن حفظ السمك المجفف، أو دقيق السمك المجفف لأشهر عدة، ومن ثم تسويقه، على طول الساحل أو بعيدا داخل الصحراء[33].

كان الزوايا من قبيلة "أهل بارك الله"، وفرع أهل بوحبيني من قبيلة "تندغه"، يقيمون حينا في قرى آرغين مع إيمراكن، وتنحصر مهمتهم في الجانب الديني كالإفتاء وإبرام عقود النكاح، وتولي الإمامة، دون أن يتدخلوا في الصيد، ويعاملهم إيمراكن باحترام وتقدير.

ورغم أن بعض هؤلاء الزوايا يعتبر إيمراكن أتباعا له أو موالي، فإن العلاقة يطغى عليها الجانب الروحي أكثر منها ولاء أو تبعية أو عبودية، فالصيادون الذين تحضر الخرافة والأسطورة بقوة في علاقتهم بالبحر يحتاجون إلى مشايخ يوفرون لهم الأحراز والتمائم[34].

ونجد لهذه العلاقة تفسيرا، في دراسات "الانقسامية"، إذ يرى المختار الهراس، أن فاعلية الصلحاء شكلت بدون شك عامل تغيير في إطار التنظيم الانقسامي، لكونها جعلت السلم والتوازن الاجتماعيين مرتبطين بوساطتهم، وليس فقط بتعارض القسمات وتحالفها[35].

وعموما تحضر الماورائيات والخرافة والأسطورة في تاريخ إيمراكن، فالذاكرة الشعبية لهم تزخر بالكثير من الأساطير، بعضها باق والآخر اندثر. ومن أشهرها منع إشعال النار ليلا، وعدم زيارة النساء للبحر فجرا، والابتعاد عن استعمال البخور أو أي دخان، لاعتقادهم أن ذلك يفسد الصيد، تقول نسوة من إيمراكن إنهن عاصرنها[36]، وإلى اليوم، يستبشرون حين تتشاجر النساء، ويعتبرونه مؤشرا على صيد وفير ينتظرهم.

المحور الثالث: ديناميكية جماعة إيمراكن

لقرون طويلة كان رجال إيمراكن يمارسون الصيد بطرق بدائية جدا، وأيضا في موسم واحد، وصيفا ينتجعون بمحاذاة الشاطئ مع قبائل الزوايا ملّاك الإبل، ومع بدء الموسم يعودون إلى البحر فيردون جميل أصحاب الإبل حين يفدون إليهم شتاءً.

كما أن إيمراكن يتعاملون مع من يعرفون باسم "الشراركة" نسبة للشرك، فقد كانوا، في القرن التاسع عشر، يصنعون شباكا تستخدم فيها ألياف من نباتات محلية كالحلفة والفرنان مع الطين المشوي، ويطلقون على هذا النوع من الشباك "أكرف" وهي شباك صغيرة ظل استخدامها محدودا.

---

(33) Boulay, Pêcheurs imraguen du Sahara atlantique, p 31 & 32.

(34) الأمين، محمد، منسق تعاونيات إيمراكن، مقابلة في نواكشوط، نوفمبر 2017.

(35) الهراس، مرجع سابق، ص275.

(36) بنت البخاري، مبيحلة، إحدى سكان نوامغار، مقابلة في نواكشوط، نوفمبر 2017.

1.3. تطور عملية الصيد

تصنف الشواطئ الموريتانية الممتدة على المحيط الأطلسي بأكثر من 700كلم، من الأغنى بالسمك في العالم، إذ تتلاقى في مياهها الإقليمية التيارات البحرية الدافئة والحارة، الأمر الذي هيأ مياهها، لأن تكون مأوى لكثير من أنواع الأسماك والأحياء المائية التي تهاجر في معظم فصول السنة من جميع المناطق الأخرى، للتمتع بالحياة في وسط مائي معتدل. ومع تلاقي التيارات هذا، يوجد جرف قاري عريض يصل إلى ثمانين ميلا في بعض الأحيان، يهيئ توافر كميات كبيرة من الأسماك ذات جودة عالية طوال السنة[37].

كما أسلفنا، ظل الصيد موسميا لدى إيمراكن، وتحديدا في فصل الشتاء، حتى مطلع القرن العشرين، حين بدأت شركة فرنسية تسمى CGPM في 1920 تقريبا [38]، تشتري منهم ما يصطادونه، وتسوّقه في فرنسا ودول في غرب إفريقيا خصوصا الغابون. كما استفاد الإيمراكن من تقنيات جديدة في تجفيف الأسماك وبيضها واستخراج الزيت منها، وحينها كان استخدام السفن الشراعية قد أصبح شائعا لديهم، فصاروا يمارسون الصيد في كل فصول العام، وكما يقول عدد من الإيمراكن وكذا بعض الباحثين، فإن بداية وصول السفن الشراعية، كانت عندما احتكوا بالبحارة الكناريين (من جزر الكناري الإسبانية القريبة)، الذين لم يكن باستطاعة سفنهم الكبيرة الوصول إلى شواطئ الأطلسي مقابل قرى إيمراكن، بسبب تراجع مياه المحيط، خاصة في ساعات النهار.

ويرى الباحث الفرنسي سيباستيان بولاي، أن مختلف التغيرات التي عرفها إيمراكن، كانت مرتبطة بالتأثيرات الخارجية، خاصة التقنيات الجديدة المستجلبة، مثل استبدال الشبابيك المصنوعة من النباتات المحلية، وإعداد بيض السمك الذي يتم إنتاجه منذ عام 1930 بطلب من منصة أقامتها الإدارة الفرنسية في نواذيبو، وتحويل الألواح الكنارية إلى مراكب. ويشير بولاي إلى اختفاء بعض تقنيات معالجة الأسماك، وكذا تغير الأنواع المستهدفة حسب الأسواق الخارجية، وتراجع دور وتأثير النساء في نشاط الصيد[39].

ظلت جماعة إيمراكن تعيش في نسق تحكمه التقاليد، لكن أثرت عليه التغيرات الفنية، خاصة تلك التي جلبها الصيادون القادمون من جزر الكناري، ووصول صيادين قادمين من شواطئ إفريقية أخرى، ومحاولات الإبقاء على الاستغلال المستدام للموارد في منطقة الحظيرة الوطنية لحوض آركين[40].

ومنذ استقلال موريتانيا عن فرنسا عام 1960 ظل تعامل إيمراكن مع الدولة الوطنية أقرب للحياد، فلعقود كانت استفادتهم من الخدمات العامة كالصحة والتعليم والبنية التحية العصرية محدودة جدا، وإن حرصت الدولة طيلة هذه الفترة على علاقة ود معهم، من خلال الاهتمام بشيوخ القرى ومنحهم هدايا رمزية. ويرى مهتمون بتاريخ إيمراكن، أن الدولة الوطنية وقبلها المستعمر الفرنسي شكلت ملجأ لإيمراكن العزّل الذين عانوا طويلا من حالة السيبة[41].

2.3. مشاريع التنمية المحلية:

منذ إنشاء "هيئة الحظيرة الوطنية لحوض آركين"، التي تدير محمية "حوض آركين" الطبيعية، تعززت صلات إيمراكن بالدولة، فمن مهام الهيئة توطين وتثبيت السكان الأصليين، إضافة إلى مهمتها الأساسية المتمثلة في حماية

(37)ولد إسلمو، المرابط، وآخرون، موريتانيا: الثقافة والدولة والمجتمع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة 2، 2000، ص 154.

(38)بنت حبيب، مصدر سابق.

(39).Boulay, Pêcheurs imraguen, op, cit, p43

(40)Ibid, p44.

(41)ولد كوتل، مصدر سابق.

المخزون البيئي المتنوع للأرخبيل. وهكذا اعتمدت الهيئة إدماج السكان الأصليين في مشروعها، فكل فريق من حماية الطبيعة يضم ممثلا عن السكان؛ كما رسمت إدارة الحظيرة خارطة للصيد تحدد الأنواع المسموح بصيدها في كل فترة من العام، وراعت هذه الخارطة ضرورة تجنب المصائد التي تتكاثر فيها الأسماك المهاجرة. وموّل المانحون الدوليون، خلال السنوات الأخيرة مشاريع بغلاف مالي في حدود حوالي 260 مليون دولار، مشاريع لتنمية آركين، تركز على دعم التعاونيات النسوية وتدريب إيمراكن على تقنيات أكثر تطورا لمعالجة الأسماك، وتشييد مصانع السفن الشراعية، إذ يحظر الصيد بالزوارق ذات المحركات في الأرخبيل ـ كما أشرنا سابقا ـ نظرا لكونه محاذ لمحمية طبيعية، تعتبر من أكبر تجمعات الطيور المهاجرة والنادرة في العالم، إضافة لعجول البحر المهددة بالانقراض.

1.2.3. مشروع حماية التنوع البيولوجي

من بين المشاريع التي ساعدت إيمراكن على تحسين استغلال السمك، والاستفادة منه اقتصاديا، مشروع نفذته هيئة أوروبية تعرف باسم 4cities4developement، مدعوم من الاتحاد الأوروبي، ومن جهتين إيطاليتين هما تعاونية "أوربيتلو باسكال لاغوناري" في إقليم توسكان الإيطالي، وهي الشريك الفني للمشروع، وكذا الحكومة المحلية لمنطقة في بيمونتي الإيطالية، والتي دعمت المشروع منذ بدئه.

وهو مشروع لحماية التنوع البيولوجي، يدعم منصات الغذاء، وأنشطة الإنتاج الصغيرة المحلية المهددة بالاختفاء، والتي تمنح قيمة لمنطقة ما، وتحمي المهن والتقنيات التقليدية.

وتدعم الهيئة 300 منصة إنتاج حول العالم، تضم 10 آلاف منتج: مزارعون، ورعاة، وصيادون، وصناع حرفيون، ويعني الحفاظ على منتجاتهم حماية لمحيطهم، ولتأمين مستقبل مستدام لصغار المنتجين خاصة في الشواطئ الإفريقية، وكذا حماية مئات من أنواع الحيوانات والنباتات، وتأمين كوكب نظيف وغني بالتنوع البيولوجي لأجيال المستقبل[42].

وبحسب الدراسات الأخيرة، فإن 50% من مخزونات سمك البوري (Mulet) باتت مهددة، بينما تعيش أنشطة تحويل السمك، في أزمة، ويتلخص هذا النشاط في إنتاج بيوض الأسماك، التي تمارس بشكل تقليدي من طرف النساء[43].

بيد أن عددا من مجموعات الصيادين وتعاونيات النساء، التي تعمل في مجال الصناعة التحويلية التقليدية للسمك، ما تزال تقاوم وتعمل رغم كل الظروف، وهي التي حظيت بالدعم الفني ضمن هذا المشروع.

وتواجه التقنية القديمة للصيد، تهديدا من الأساطيل التجارية، يضاف لذلك أن إنتاج إيمراكن المعد للتصدير ما يزال ضعيف العائد، إذ يتم شراء بيض السمك بسعر رخيص جدا عن طريق وسطاء ليتم تسويقه في الخارج، وعلى هذا الأساس عمل مشروع "حماية التنوع البيولوجي" على دعم منتجين محليين ليتمكنوا من شراء أسماك البوري من الصيادين ويحولونها، خاصة منتوجهم الرئيسي، وهو بيض الأسماك غير المجففة.

نشأت المنصة لدعم إدارة تسويق بيض السمك، ومن خلال هذا المنتج، تهتم بالصيد المستدام وبمستقبل إيمراكن، وبالعمل مع مختلف الفاعلين (النساء اللائي يقمن بتحويل السمك والرجال الذين يصطادونه) سعيا إلى تطوير إنتاج محلي وحرفي.

يحاول المشروع ترقية اقتصاد محلي ذي أهمية. ذلك أن المجموعات المحلية يمكن أن تستفيد من الصيد التقليدي وتحويل السمك سواء من أجل مورد غذائي، أو من أجل منتجات ذات جودة يتم تسويقها على المستويين المحلي

(42) 4cities4developement , Rapport: Mauritanie, Poutargue des femmes Imraguen, Projet de protection de la biodiversité, Nouakchott, 2012.

(43) Ibid.

والدولي. كما يمكن للعمل على بيض الأسماك، القائم على التدريب وعلى العمل الجماعي لعشرات النسوة، أن يكون مفيدا لتطوير أنشطة أخرى في مجال تحويل السمك.

وبفضل هذه المبادرة اكتسبت 244 امرأة الكفاءات الفنية الضرورية لإنتاج بيض أسماك ذي جودة عالية، مع احترام نظم الصحة، وبلغن استقلالية جيدة في إنتاجهن وتسويقهن.

3. 2. 2. نتائج المشروعات التنموية:

أصبح بيض سمك نساء إيمراكن معروفا جدا اليوم، حتى خارج حدود البلد خاصة بفضل مشاركتهن في العديد من التظاهرات الدولية المنظمة من طرف "برنامج الغذاء البطيء" وهو برنامج عالمي، ويشهد على ذلك اهتمام الصحافة الذي تكثف خلال الأعوام الأخيرة، حسب ندوى مختار النش، رئيسة المنظمة غير الحكومية "موريتانيا 2000" وهي منسقة المشروع محليا[44].

في قرى إيمراكن، يتم العمل اليدوي لتحويل بيض السمك، عادة، في ظروف صحية رديئة. فاستخراج البيض يتم على الأرض فوق الرمال أو مباشرة على حافة البحر. وغالبا ما يكون التمليح ناقصا أو غير منسجم. كما أن الملح المستخدم رديء النوعية والبيض المجفف عن طريق الشمس يتم وضعه على صفائح حديد صدئة أو لوحات خشبية. المنتج الذي يتم العمل عليه بهذه الطريقة رديء جدا وليس مضمونا من الناحية الصحية.

هذه الوضعية هي التي كانت تعاني منها مجموعة النسوة اللائي شكلن فيما بعد النواة الصلبة للمشروع.

وفي الفترة ما بين 2006 و 2012 شهد الإنتاج المحلي تغيرا واضحا، فقد حجز نساء إيمراكن مكانتهن في السوق، وأصبحن يبعن جميع منتجاتهن مغلفة بشكل جيد، وتحمل اسم وعنوان المصدر، مرفقة بمطوية مصورة.كما أصبح لديهن العديد من الآليات المهنية (ماكينة جديدة للتغليف، وغرفة تبريد) وكتابة ونشر دليل للممارسات السليمة للعمل في مجال السمك (دليل مصور بنصوص عربية وفرنسية) وتنظم دورات تدريب لصالح نساء المشروع، مع مشاركة بعض المنتجات في بعض المحافل الدولية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا.

أبرز النتائج العامة للدراسة

توصلنا في هذا البحث إلى جملة من النتائج، تتعلق بجماعة إيمراكن وعملها وبيئتها ومحيطها الجغرافي، ومن أبرز هذه النتائج:

1- طبيعة مجتمع البيضان في موريتانيا وفي دول الجوار، هي حالة خاصة في محيطها العربي والإفريقي، وهذه الخصوصية تتمثل في التقسيمات الطبقية التاريخية الصارمة والمبنية على الوظيفة، والتي ما زالت قائمة إلى اليوم. كما أن من بين خصوصيات البيضان، اللغة وطبيعة البناء القبلي والعلاقات بين الفرد وقبيلته وبين القبائل بعضها بعضا.

2- طريقة تشكل العشائر والقبائل وبناء التحالفات والاندماج، تتقاطع في كثير من جوانبها مع السائد في المنطقة العربية، وفي البلدان التي توجد بها بنية قبلية عشائرية، فالقبيلة تقوم على أساسين هما النسب والعصبية، يضاف إليهما التحالف الذي قد يتطور إلى أن يصل إلى اندماج مجموعات تشكل كيانا قبليا قائما.

وتوصلنا إلى أن القبيلة اليوم في موريتانيا، تعد أمرا واقعا في الحياة العامة، كما أن التصنيف الطبقي الوظيفي لم يختف، وما زالت تأثيراته موجودة.

---

(44) Ibid.

3- جماعة إيمراكن هي كيان وظيفي مشكل من مجموعات متعددة الانتماءات القبلية، جمعتها مصلحة مشتركة تتمثل في مهنة الصيد، وهي حالة فريدة في موريتانيا. كما أن الحفاظ على هذا التجمع بالطريقة نفسها واستخدام الوسائل والآليات نفسها إلى غاية اليوم، يعد حالة تستحق الوقوف عندها، فرغم كل التغيرات والمدخلات فإن الأسس التي قامت عليها الجماعة ما تزال ماثلة أمامنا إلى اليوم، وتعمل بالطريقة نفسها.

وتوصلنا في هذا الإطار إلى أن استفادة إيمراكن من التقنيات الحديثة والوسائل المتطورة، في الصيد والحياة العامة، ضئيلة جدا.

4- توصلنا إلى أن خصوصية بيئة إيمراكن تعد عاملا أساسيا في حفاظهم على الطرق التقليدية للصيد. فهم يعيشون قرب محمية حوض آركين، والتي صنفتها منظمة "اليونسكو" ضمن مواقع التراث الإنساني العالمي، نظرا لخصوصيتها البيئية فهي تجمع التلال الرملية والجزر المتناثرة وسط مياه ضحلة متصلة بالمحيط، ويعد ملاذا لملايين الطيور المهاجرة من أوروبا في فصل الشتاء.

وبسبب تحريم الدولة للصيد بالسفن والقوارب ذات المحركات الكبيرة، فإن إيمراكن يعيشون حالتين: الأولى كون منطقتهم محمية من عمليات الصيد الحديثة وبالتالي يحافظون على امتلاك مخزون السمك الكبير في المناطق الشاطئية القريبة منهم. والثانية هي كونهم غير قادرين على اقتناء سفن أو قوارب حديثة، قد تساعدهم في إحداث نقلة في كمية السمك المصطاد وبالتالي إحداث قفزة نوعية لاقتصادهم المحلي.

لذلك فهم لم يغيروا طريقة صيدهم التقليدية، والمعتمدة على دخول البحر بشكل ذاتي لمجموعات من الرجال، مستعينين بالدلافين المروضة، للإيقاع بالأسماك في شباكهم.

5- بحسب ما رصدناه، فإن جماعة إيمراكن، قد تصمد لفترة طويلة في بيئتها الحالية، ويمكنها الحفاظ على آليات العمل نفسها. لكن التحدي الحقيقي أمامها يكمن في مجمل التغيرات على المستويات كافة، والتي لا يمكن أن تمر دون إحداث تأثير تدريجي على نمط العيش وعلى طبيعة العمل وكذلك القدرة على مواصلة تكوين أجيال تواصل مهمة الصيد بالطريقة التقليدية.

فالتواصل مع المدن القريبة يتزايد، كما أن متطلبات الحياة تتضاعف، وتفرض التقنيات الحديثة نفسها على الكل.

وبالتالي فإن الجماعة قد تصل في المستقبل إلى حالة تجمع فيها بين الماضي والحاضر، بمعنى أن تواصل الحفاظ على مهنة الصيد التقليدي بالآليات نفسها، ولكن في الوقت نفسها تستفيد من مشاريع اقتصادية أخرى خصوصا فيما يتعلق بالتصنيع والتصدير. كما يمكن إحداث نقلة نوعية في البينة التحية للمنطقة في حالة بناء منظومة للسياحة البيئية.

توصيات الدراسة

في إطار ما توصلنا إليه في هذا البحث، يمكن إجمال مجموعة من التوصيات الأساسية:

1. ضرورة الحفاظ على حالة التعايش الفريد بين مكونات إيمراكن، والتي قامت على أساس اقتصادي، وفي منطقة بحرية فريدة في غناها بالموارد الطبيعية وفي خصوصيتها المناخية والبيئية.
2. تقديم نموذج إيمراكن في المناهج الدراسية بوصفه حالة تعايش ناجحة وطويلة المدى، استطاعت بناء هوية خاصة تتجاوز الإطار القبلي العشائري. كما أنهم يمثلون مثال لنوع من الاستقلال الاقتصادي، المبني على استغلال الموارد الذاتية.

3. ضرورة خلق آلية تنسيق بين "المؤسسة الوطنية لحوض آركين" وجماعة إيمراكن، بهدف توعية أفراد الجماعة بطبيعة أهمية محمية حوض آرغين وخصوصياتها. كما أن ذلك يزيد من تعزيز الثقة في علاقة الجماعة مع الدولة ويساهم في خلق برامج تطويرية للمنطقة.
4. لابد من تعزيز الخدمات العامة في المنطقة، خصوصا في مجالات الصحة والتعليم والبنية التحية الضرورية، فالمنطقة تحتاج نهضة حقيقية على المستويات كافة، ويمكن إحداث ذلك مع الحفاظ على خصوصية إيمراكن، بل إن تلك الخصوصية يمكن أن تصبح عامل إثراء وجذب.
5. المستقبل الاقتصادي والاجتماعي لجماعة "إيمراكن" مرهون بعاملين أساسيين، هما الحفاظ على خصوصيتهم الوظيفية، وبناء اقتصاد محلي جاذب، يساعد على بقاء الأجيال القادمة. وسيساعد هذا العاملان في استمرارية نموذج إيمراكن وجعله جزءا أساسيا من تراث البلد الحي، وتسويقه إعلاميا وسياحيا بهدف تعزيز فرص بقائهم في المنطقة بالطريقة ذاتها، وفي الوقت نفسه إنعاش منطقتهم وتحويلها إلى مكان صالح للعيش الكريم وجاذب للسياح.
6. نوصي بتقديم ملف إلى منظمة "اليونسكو"، لتسجيل عمليات الصيد التي تقوم بها جماعة إيمراكن، ضمن قائمة التراث الإنساني غير المادي، وذلك نظرا لطبيعة عملها التقليدي المتجذر في التاريخ.
7. التعمق في دراسة هذه الجماعة مستقبلا، خصوصا من زاوية توريث المهنة، وتقسيم العمل داخل الجماعة، وآفاق بناء اقتصاد محلي قوي ومزدهر يساهم في تنمية المنطقة وتشبث أهلها بها.
8. من الضرورة إجراء دراسة باللغة العربية، تتناول بيئة وجغرافية منطقة حوض آركين المصنفة تراثا إنسانيا عالميا، لكشف جوانب علمية أخرى، قد تساعد في التوصل لتأثير الخصوصية الجغرافية والبيئية على هوية إيمراكن.
9. نوصي بإجراء دراسات تكشف خصوصية جماعة "النمادي" في مناطق شمال شرق موريتانيا، والمتخصصة في الصيد بكلاب "السلوقي" المدربة, فهي تتقاطع مع إيمراكن في كون كل منهما متخصصة في نوع من الصيد، لكن "النمادي" يمتازون بطبيعتهم البدوية وبيئتهم الصحراوية.

خاتمة

في مجتمع تتخندق قبائله في نطاقات نسبية وعصبية وأحيانا جغرافية محددة، كان لظاهرة تشكل كيان "إيمراكن" خصوصية تستحق الدراسة والتأمل، ذلك أنه كيان أخذ مكوناته من قبائل شتى، ونأى بنفسه عن الطبيعة الاقتصادية والبيئية والثقافية السائدة في المجتمع، فاختار الصيد مهنة دائمة، وشاطئ البحر أو الجزر مقاما دائما، تحت سقف واحد، بعيدا عن سطوة القبيلة واقتصادها القائم على الترحال.

ورغم أن "كونفدرالية إيمراكن" جذبت معها بعض خصائص مجتمع الصحراء إلى البحر، إلا أنها تميزت عنه بوحدة تنبع من مبدأ الوظيفة الجامعة لكل الأفراد، والمصالح المشتركة، قبل روابط النسب والعصب.

وجدير بالإشارة إلى أن هذه الجماعة المستقرة منذ قرون، وتحافظ على وسيلة عيشها، بالطريقة نفسها، لا يمكن أن تقارن في انسجامها الوظيفي، واستقرارها، مع محيطها في مجتمع البيضان، الذي هو في الغالب من الرحل، وليس له ارتباط مع الأرض، وقانونه الدائم يقوم على أساس الكفاح من أجل الحياة، بحثا عن الأكل والشرب لدوابه، ودفاعا عنها ضد الأطماع، والانتشار في الأراضي الخصبة في سباق زمني مع الآخر[45].

(45) Marchesin,P,op. cit.

وبرأي فليب مارشيزين لا يمكن فهم مجتمع البيضان إلا بفهم متطلباته البيئية التي تحدد أفق نشاطه الاقتصادي، القائم على الثروة الحيوانية [46]، فهي وسيلة الإنتاج الوحيدة، التي من خلالها توجد استقلالية لكل قبيلة أو حي، لكنها في المقابل تفتح أمام الملاك رحلة لا تكاد تتوقف حتى تبدأ، كما تشرع أبوابا للحروب والصراعات، على الثروة والأرض والماء.

من هنا نخلص إلى أن جماعة إيمراكن استطاعت خلق إطار جديد تماما على مجتمع البيضان، وحافظت عليه رغم كل العوامل التي واجهتها، وما زال الأحفاد اليوم والذينلا يتجاوز عددهم بضع مئات، يواصلون مسيرة المصالح المشتركة، عبر وظيفة واحدة لكل أفراد الجماعة، هي الصيد، فله عاشوا، ومنه اقتاتوا، والأهم من كل ذلك، أنهم على أساسه شكلوا كيانا قائما، تجاوز حدود القبيلة، في مجتمع يعيش حالة استقطاب قبلي صارمة.

المصادروالمراجع

أولاً- المراجع باللغة العربية

- باهداه، يعقوب، القبيلة والدولة: التنمية المحلية من خلال ثنائية العلاقة.. وتجربة تمدين الرُّحل في موريتانيا، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، 2013.
- بوبريك، رحال، المدينة في مجتمع البداوة: التاريخ الاجتماعي لولاته خلال القرنين 18 و19، مع تقديم ونشر تاريخ ولاته"، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2003.
- بوبريك، رحال، دراسات صحراوية: المجتمع والسلطة والدين، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الثانية، 2008.
- بوطالب، محمد نجيب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه، بيروت، 2002
- الهراس، المختار، وآخرون، التحليل الانقسامي للبنيات الاجتماعية في المغرب العربي: حصيلة نقدية، في "نحو علم اجتماع عربي"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1989
- ولد إسلمو، المرابط، وآخرون، موريتانيا: الثقافة والدولة والمجتمع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة 2، 2000.
- ولد السالم، حماه الله، تاريخ موريتانيا: العناصر الأساسية، منشورات الزمن، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2011.
- ولد محفوظ، عبد الوهاب، القبيلة في موريتانيا: بين التأصيل التاريخي والتحليل السوسيولوجي، مجلة إضافات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 14، ص 125. 150، ربيع 2011.

ثانياً- المراجع الأجنبية

- 4cities4developement , Rapport: Mauritanie, Poutargue des femmes Imraguen, Projet de protection de la biodiversité,P.1-10, Nouakchott, 2012.
- Boulay, Sébastien, Pêcheurs imraguen du Sahara atlantique: mutations techniques et changements sociaux des années 1970 à nos jours, Karthala, Paris, 2013.
- Boulay, Sébastien, Statut d'exception du Mulet jaune dans la société maure (Mauritanie): gibierdes pêcheurs imrâgen, viande des pasteurs nomades, Anthropozoologica 45/1, p101-114, 2010.

(46) Marchesin, ibid.

- Marchesin,Philipe, « Tribus, ethnies, et pouvoir en Mauritanie », Collection "Hommes et Sociétés", Khartala, Paris, 1992.
- Ould Cheikh, Abdel Wedoud, Nomadisme, islam et pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XIème siècle - XIXème siècle): essai sur quelques aspects du tribalisme, Thèse de doctorat, Univ Paris 5, 1985.
- Ould Cheikh, Abdel Wedoud, « Eléments d'histoire de la Mauritanie », Première édition, Collection "connaissance de la Mauritanie" Centre culturelle français, Nouakchott, Mauritanie, sans date.
- Stewart, Charles Cameron, "Islamand Social Order in Mauritania: A Case Study from the Nineteenth Century", (Oxford Studies in African Affairs), Oxford University Press , Oxford, UK, 1973.
- Taine-Cheikh, Catrine: Des ethnies chimériques aux langues fantômes: L'exemple des Imraguen et Nemadi de Mauritanie, dans « Cahiers de l'Institut de Linguistique de Louvain » pp.137-164, 2013.